الفصل الثانى

الذاكرة التاريخية
وبطولة على بن أبى طالب

فى جمادى الأولى سنة ثمان هجرية اشتبك المسلمون لأول مرة مع الروم فى معركة مؤتة. وفى هذه المعركة هزم جيش المسلمين وقتل الثلاثة الذين كانوا قد عينهم النبى صلى الله عليه وسلم على الجيش، وهم: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبى طالب، وعبد الله بن رواحة»[1].

والغزوة الثانية التى قام بها المسلمون ضد الروم هى غزوة تبوك. ويحكى ابن هشام فى السيرة كما يحكى الطبرى فى تاريخه أن النبى صلى الله عليه وسلم أقام بالمدينة ما بين ذى الحجة إلى رجب سنة تسع هجرية، ثم أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم. وبعد أن حث الناس على المسير والأغنياء على النفقة، توجه إلى على بن أبى طالب وخلفه على أهله «وأمره بالإقامة فيهم، فأرجف به المنافقون وقالوا: ما خلفه إلا استثقالا وتخففا منه. فلما قال ذلك المنافقون أخذ على رضوان الله عليه سلاحه، ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نازل بالجرف فقال: يانبى الله، زعم المنافقون أنك إنما خلفتنى لأنك استثقلتنى وتخففت منى. فقال: كذبوا، ولكننى خلفتك لما تركت ورائى. فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك. أفلا ترضى ياعلى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى،

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وزميليه، ط ٣، جـ ٢ ص ٣٧٣

إلا أنه لا نبى بعدى. فرجع إلى المدينة، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سفره»[1].

وتستمر السيرة فتحكى كيف عارض المنافقون النبى ، وكيف أن النبى سار بجيشه فى الصحارى حتى وصل إلى تبوك، «ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك أتاه يحنة بن رؤبة صاحب أيلة فصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جرباء وأذرح فأعطوه الجزية»[2]. وتمضى السيرة فتقول «فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبوك بضع عشرة ليلة ولم يجاوزها، ثم انصرف قافلا إلى المدينة[3]». وبهذا تنتهى غزوة المسلمين لتبوك كما ترويها السيرة وكتب التاريخ.

وقد كان لهذه الغزوة فيما بعد صدى بعيد فى النفوس، واهتم بها الشعب اهتماما كبيرا ظهر أثره فيما ألف من قصص شعبية ـ شعرية ونثرية ـ عن هذه الغزوة. وتضم مخطوطات جامعة برلين ـ وهى الآن موزعة بين جامعات ألمانيا ـ خمس مخطوطات بين كاملة ومنقوصة، تحكى قصة هذه الغزوة بطريقة أو بأخرى. وهى ثروة أدبية شعبية لا يمكن إنكار قيمتها.

ولا بد أن نقف الآن وقفة ملية عند هذه المخطوطات، نصفها ونقارن بينها. ويتضمن فهرس المخطوطات العربية ببرلين لمؤلفه «ألوارد Alwardt» أرقام هذه المخطوطات، وهى على النحو التالى:

(١) نفسه، جـ ٢ ص ٥١٦ ـ ٥١٩.
(٢) نفسه ص ٥٢٥.
(٣) نفسه ص ٥٢٧.
وانظر كذلك تاريخ الطبرى، ط ليدن، جـ ١، ص ١٦٩٦.

(أ) ألوارد: الجزء التاسع ص ١٨٢ رقم ٩٦٢٧، وسنشير إلى هذا المخطوط بالرمز (أ).

(ب) ألوارد: الجزء الثامن ص ٢٢ رقم ٨٩٩٠، وسنشير إلى هذا المخطوط بالرمز (ب).

(جـ) ألوارد: الجزء الثامن ص ٦٧ رقم ٩١٠٥، وسنشير إلى هذا المخطوط بالرمز (جـ).

(د) ألوارد: الجزء الثامن ص ١٤٠ رقم ٩١٥٩، وسنشير إلى هذا المخطوط بالرمز (د).

(هـ) ألوارد: الجزء التاسع ص ٢٢٧ رقم ٨١٧٩، وسنشير إلى هذا المخطوط بالرمز (هـ)[١].

والى جانب هذه المخطوطات العربية عثر كذلك على مخطوط يتضمن هذه القصة بلغة السواحيلية،وسنرمز لهذا المخطوط بالرمز (و)[٢].

(١) هذه المخطوطات قد نقلت إلى جامعة توبنجن بألمانيا أثناء الحرب العالمية الثانية، ورموزها بهذه المكتبة على الترتيب الذى ذكرناها به هى:

من ص ١٤٩ و إلى ص ١٦٧	1- Berlin Pelermann 11 495
من ص ٤٥ ظ إلى ص ٧٥ و.	2- Berlin Pelermann 11 460
من ص ٢٠ و إلى ص ٣٧ ظ.	3- Berlin Pelermann 1 259
من ص ٤١٤ و إلى ص ٤٢١ ظ.	4- Berlin Pelermann 11 614
من ص ٧٢ و إلى ص ٨٠ ظ.	5- Berlin Pelermann 11 747

(٢) السواحيلية هم سكان ساحل افريقيا الشرقى فيما بين خطى عرض ٢، ٩ جنوبا، وهم مزيج من العرب والزنوج، ولهم لغتهم الخاص بهم، وترجع صلتهم بالعرب إلى القرن الأول الميلادى. أما إقامة العرب الحقيقية فى بلادهم فترجع إلى سنه ٦٨٩ ميلادية. وأثر العرب كبير فى لغة هذا الشعب وأدبه، فلغتهم تتضمن كثيرا من الألفاظ العربية، وأوزانهم الشعرية متأثرة إلى حد بعيد بالأوزان العربية، كما أن تراثهم الشعبى يتضمن قصصا عربية خالصة إلى جانب تضمنه لقصص هندية وفارسية. (انظر: Encyc. Britannica' vol, 21, P. 629) =

أما القصة فى المخطوط (أ) فتبدأ بأمر من الله إلى الرسول للذهاب إلى تبوك، حيث تجتمع جيوش الروم لمحاربته. ثم تمضى القصة فتقول: «قال أبو الحسن البكرى: وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أثر العسكر، وكان معه فى هذه الغزاة أربعمائة جمل تحمل الزاد، ومائة تحمل العدد والسلاح.

وكان النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك اليوم لابس من قباطى مصر مدرعا بدرعه فلبسه. وكان صلى الله عليه وسلم ساير كأنه البدر فى ليلة أربعة عشر أو خمسة عشر، إذ هبط عليه الأمين جبريل عليه السلام من عند رب العالمين وقال له: « يامحمد، ربك يقريك السلام. ويخصك بالتحية والاكرام، ويقول لك رد على ابن عمك إلى المدينة، فلى فى ذلك مشيئة وتدبير، وأنا على كل شئ قدير. ورد فلان وفلان رجالا عدهم جبريل أربعة وسبعين رجلا[1]». ثم تمضى القصة فتقول: «فعند ذلك نادى النبى صلى الله عليه وسلم: أين أخى وابن عمى على؟ فأجابه بالتلبية، فقال: اعلم ياعلى أن الله عز وجل أمرنى برجوعك إلى المدينة أنت ورجال

= ومن القصص العربية التى وصلت إليهم قصة غزوة تبوك التى استطاع السواحيلى أن يصوغها شعرا. وقد عثر على مخطوط هذه القصة السواحيلية أحد المبشرين الأوربيين وأودع المخطوط مكتبة الاستشراق الألمانية، وقام بترجمته الأستاذ الدكتور «ج.ج. بوتنر» أستاذ لغة السواحيلى بقسم اللغات الشرقية ببرلين.

(انظر مجلة: Zeitschrift fur Kolonia Lsprache; Herausgeben von Karl Mainhof سنة ١٩١١، ١٩١٢ والقصة الشعرية المترجمة تحت عنوان: كتاب هرقل.

Das: Buch von Hirkal.

ص ٤ ـ ٣٦، ص ١٠٨ ـ ١٣٦، ص ١٩٤ ـ ٢٣٢، ص ٢٥٩ ـ ٢٩٦.

(١) (١) ص ١٤٩ ظ، س ٢ ـ ٩

معك. فقال الإمام على رضى الله عنه: سمعا وطاعة لله ولك يارسول الله. فضمه النبى إلى صدره وبكى، وقال يا على: لا تغتم فإن لله فيك مشيئة وتدبيرا، وهو على كل شئ قدير[1]».

ثم تذكر القصة حديث المنافقين بعضهم مع بعض فى شأن رجوع على كما أورده ابن هشام. وبعد ذلك تصف رحلة النبى صلى الله عليه وسلم وكيف ضلت ناقته أثناء الطريق، «فخرج أصحابه فى طلبها، وعند النبى صلى لله عليه وسلم رجل منَ أصحابه يقال له عمارة بن جرير، وكان إلى ناحيته رجل من المنافقين فقال لعمارة: «أليس محمد يزعم أنه نبى ويخبركم عن خبر السماء وهو لايدرى أين ناقته ضلت؟» فلما أتى عمارة صوب النبى صلى الله عليه وسلم بدأه النبى صلى الله عليه وسلم بالكلام فقال ياعمارة: إن رفيقك قال إن هذا محمد يخبركم أنه نبى ويزعم أنه يخاطب من السماء وهو لا يدرى أين ناقته، والله إنى ما أعلم إلا ما علمنى الله عز وجل، وقد دلنى الله عليها وهى فى عرض هذا الوادى، قد حبستها شجرة بزمامها. فانطلقوا وأتوا بها»[2].

ثم تمضى القصة فتقول: «قال الراوى: وكان ملك الروم هرقل قد سمع بمسيرهم إليه فأمرهم الأسقف بن مهران، وأمرهم أن يجتمعوا إليه من كل جانب ومكان. وكتب إلى صاحب قيسارية وصور وصيدة وبيروت، وكتب إلى جميع البطارقة والعمالقة، واجتمع إليه الملوك مرقص (كذا) صاحب بيت المقدس، وساروا

(١) (أ) ص ١٤٩ ظ، س ١١ ـ ١٥.
(٢) (أ) ص ١٥١ و، س ٥ ـ ١٣.

حتى اجتمعوا بالأرض البيضاء، وتقدم بولص بن عبد الصليب بجيوشه وعساكره فترجلت جميع العساكر وقبلوا الأرض بين يديه. وإن ملك الروم أقام ثلاثة أيام حتى استراح، فلما كان فى اليوم الرابع دخلت إليه البطارقة والعمالقة وقالوا: «أيها الملك، عشت طول الزمان، ووقيت طوارق الحدثان. قد تواترت إلينا الأخبار أن ملك العرب قد جمع إلينا عساكره، وسار إلينا يريد أن يطفئ جمرة النصارى ويقطع أثرهم من الشام ويظهر دينه، وقد اجتمعت حشاشة العرب ومن لا خلاق لهم، وقد وعدهم نبيهم بلبس الديباج والحرير، وقد خرجوا أصحابه مطيعين سامعين[1]»، وعند ذلك استعدت جيوش الروم وأرسلت الجواسيس لمعرفة أخبار جيش الإسلام، ثم تقابل الجيشان، وكان كلما تفوق جيش الروم طلب المسلمون المدد، وكلما تفوق جيش المسلمين طلب الروم المدد حتى إذا كانت نهاية القتال تفوق الروم على المسلمين، وعندئذ أخذت الأبطال تولول وتصرخ، وسمع النبى المقداد بن الأسود يبكى فسأله النبى: مما بكاك يا سيد بنى كندة، لا أبكا الله لك عينا، فرد عليه المقداد قائلا: لو كان سيف الله معنا فى هذا اليوم لأراحنا من هؤلاء الكفار الملاعين، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: من هو يامقداد؟ قال: هو الإمام على رضى الله عنه. فقال النبى صلى الله عليه وسلم: فكيف لنا الساعة به وهو بالمدينة ونحن بتبوك[2]؟ فلم يتم كلامه إلا وقد هبط

(١) (أ) ص ١٥٢ ظ، س ١٥ ـ ١٩ ثم ص ١٥٢ و، ١ ـ ١٠.
(٢) (أ) ص ١٥٩ ظ،، س ٢٠ ثم ص ١٦٠ و، س ١ ـ ٤.

جبريل عليه السلام وهو يقول: «العلى الأعلى يقريك السلام، ويخصك بالتحية والاكرام، ويقول لك يا محمد نادى بعلى، فلو أنك بالمشرق وعلى بالمغرب وناديته أجابك بقدرة الله عز وجل وإنه على كل شئ قدير[1]» فما أن نادى رسول الله عليا حتى أجابه وهو فى المدينة قائلا: لبيك لبيك يارسول الله. ثم إن الامام على رضى الله عنه لبس عدته وتدرع، وودع فاطمة الزهراء رضى الله عنها، وركب جواده وسار وهو يخاطب جواده الميمون ويقول: اقصد إلى صاحبك محمدا صلى الله عليه وسلم. ثم أطلق عنانه، فمد الجواد الميمون أذرعته وعينيه بإذن الله تعالى، وامتد على الأرض وصدعها بحوافره، فبقى الإمام على رضى الله عنه طايرا[2]» وفى لحظة كان على بين صفوف المحاربين. «ولما دنا من النبى صلى الله عليه وسلم ضمه إلى صدره وقبله ما بين عينيه، وألبسه قميصه الذى عرق فيه. قال الامام على رضى الله عنه فشممت عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه الكافور والعنبر، ثم أدرعه النبى صلى الله عليه وسلم بدرعه الفاضل وعممه بعمامته السحاب، وقلده بسيفه ذو الفقار، وقال يا أبى الحسن خذ اليوم بثأر أخيك جعفر، وأجمل واذكر ابن عمك محمد صلى الله عليه وسلم. قال الراوى: فحمل الامام على رضى الله عنه وقصد عسكر الروم وهو ينشد:

---

(١) (أ) ص ١٦٠ و، س ٧ ـ ١٠.

(٢) (أ) ص ١٦١ و، س ١٠ ـ ١٩.

أنـا فـى الحـرب إليها وبنفسى أفتديها
نعمة مـن خالق الخلق قـد خصصنيها
ولـى الفخر علـى الناس بفاطمه وبنيها
ولـى السبقة فى الإسلام طفلا ووجيها
ولـى وقـفات ببدر يوم حار النهار فيها[1]

فلما سمع النبى صلى الله عليه وسلم شعر الامام على رضى الله عنه تبسم وقال[2] يا على يا أبو الحسن دوس أعداء الله، دوس الحصيد بأيدى العبيد، ولا يفوتك عـدو الله بولص. استودعتك لمـن لا تخيب لديه الودايع، وهو القريب المجيب. فعند ذلك حمل الامام على رضى الله عنه فخر الميمون من تحته كأنه البرق الخاطف، أم السحاب الواكف، فحمل بين العسكرين وكلما مر بكتيبة من كتايب المسلمين يظنوا أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حمل بنفسه. هذا وأن الإمام على رضى الله عنه حمل على الميسرة أقلبها على الميمنة، والميمنة أقلبها على الميسرة، فعندها نادى سالم مولى حذيفة، والله هذه شمايل مولاى على. فقال مولاه: لا تخلف، على بالمدينة. قال: يا مولاى ربنا أذن له بالحق أن يدركنا فى هذه الشدة ويرحمنا به، ثم إن الغلام حد نظره نحو الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه وقال يا مولاى: إن لم يكن هذا مولاى على فاجلدن مائة جلدة. فقال له حذيفة: اللهم نعم، وإن كان عليا ففرسك ولامة حربك لك حلالا طيبا. قال أبو الحسن البكرى

(١) (أ) ص ١٦١ ظ، س ١ ـ ٥.
(٢) ليست فى النص.

رحمه الله: وكان أيضا لأبى أيوب الأنصارى غلاما فيه ثقة ودين. فلما نظر إلى حملة الإمام رضى الله عنه قال الغلام: ياسيدى هذا والله مولاى على رضى الله عنه. فقال أبو أيوب الأنصارى: ويـلك لا تحلف، أنت تعلم أن عليا تركناه بالمدينة، ولكن اذهب فإن كان عليا فأنت حر لوجه الله تعالى، ولك منى ألف درهم هبة لوجه الله تعالى، فمضى الغلامان معا إلى الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو يحمل على المشركين فيقلبهم بعضهم على بعض. قال: فتقدما إليه الغلامان وناداياه: بحق من أعطاك هذه المنزلة من أنت. فقال الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو فى طعنه وضربه: ياغلام أبو حذيفة، ارجع إلى مولاك وخذ منه لامة حربك وفرسك حلالا، ويا غلام أبو أيوب الأنصارى، ارجع إلى مولاك وخذ منه الألف درهم وقل له يعتقك من الرق، فأنا الإمام على بن أبى طالب.

قال الراوى: فرجع كل واحد منهما إلى سيده وأخبره بمجئ الإمام على رضى الله عنه ويبلغه ما وعده به، قال أبو أيوب الأنصارى: فتعجبت وخرجت انظر إلى فعل الإمام على رضى الله عنه، وإذا به قد زعق على المشركين زعقة الغضب، وهى المشهورة عند أهل العرب، ونادا يا معاشر بنى الأصفر أنا ابن عم محمد، أنا الإمام الغالب، أنا رامى الأعداء بالمصايب، أنا على بن أبى طالب. قال أبو حذيفة ومن خرج معهم ينظرون: والله لقد رأينا عساكر المشركين يتكربسون بعضهم على بعض، ورأينا الإمام على رضى الله عنه وقد قصد فى جملته إلى العلم الذى على رأس بولص بن

عبد الصليب كأنه العقاب الكاسر أو الليث الذى إلى فريسته مبادر، وهو يزعق: واثارات جعفر الطيار، وانقض على الملك بولص وجذبه بأطراف درعه وعلقه كما يعلق الباشق العصفور، ثم جعل بيده اليسار درقته، وحمل على المشركين، قال الراوى: وإذا بالأسقف بن مهران وهو يقول: يابنى الأصفر، أفنوا العرب جماعى الحطب وقطاعى الرطب. فلما رآه الامام على كرم الله وجهه هجم عليه وأخذه بيده والأسقف باليد الأخرى، ثم نادى أنا آخذ الثأر، أنا أخو جعفر الطيار[1]، أنا الفارس الكرار، أنا قاسم الجنة والنار، أنا ابن عم محمد المختار، ما بدا الليل والنهار. قال أبو الحسن البكرى رحمه الله تعالى: فلما نظر المشركون إلى ملكهم فى يد الإمام على رضى الله عنه هابوه ولم يقدروا عليه، واندفعوا منهزمين. ففرحوا المسلمين بذلك وأتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروه بما جرى، فدعا للامام على رضى الله عنه وجزاه خيرا وقال: «يا قوم علىّ طينته من طينتى، والله مايحبه إلا مؤمن تقى، ولا يبغضه إلا منافق شقى[2]».

وتنتهى القصة بأن قال النبى صلى الله عليه وسلم لعلى: «يا على أنت ترجع إلى المدينة. قال: نعم يارسول الله، وأنا أسير بالعساكر الهوينا ونجتمع جميعا بالمدينة إن شاء الله تعالى[3]». ومكث النبى

(١) جعفر الطيار هو جعفر بن أبى طالب، شهد غزوة مؤتة واستشهد فيها ويقول ابن هشام إنه «أخذ اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قتل رضى الله عنه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابه الله بذلك جناحين فى الجنه يطير بهما حيث شاء». (انظر ابن هشام فى السيرة، جـ ٢ ص ٣٧٨).

(٢) (أ) ص ١٦١ ظ، ص ١٦٣ و، س ١ ـ ١١.

(٣) (أ) ص ١٦٣ ظ، س ١١ ـ ١٣.

بعد ذلك أياما فى تبوك صفح فيها عن بعض من تخلف فى القتال، ثم كر راجعا[1].

ثم نعرض لتفصيلات القصة فى المخطوط (ب) لما بينها وبين تفصيلات المخطوط (أ) من اختلاف.

تقول القصة فى بدايتها: «روى عن عبد الله بن العباس رضى الله عنه قال: كنا جلوسا عند الرسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء خبر ابن عمه جعفر الطيار وصاحبه أبى رواحة، وزيد بن حارثة، فهملت عيناه وقال: لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. ثم دخل الدار، وقعد للعزا مدة سبع أيام، والناس يأتون إليه من كل جانب ومكان يعزونه، فلما كان اليوم الثامن انقضى العزا أتاه جبريل وعزاه، ثم قال يا رسول الله: العلى الأعلى يقريك السلام، ويخصك بالتحية والاكرام، ويقول لك إلى متى أنت قاعد. قم وخذ بالثأر، واكشف عنك العار، من الكفار والفجار، وقد أمرك ربك بالغزات إلى تبوك[2]».

وبهذه البداية يختلف المخطوط (ب) عن المخطوط (أ)، فبينما يصور المخطوط (ب) غزوة تبوك على أنها حرب انتقامية لغزوة مؤته التى استشهد بها جعفر الطيار، نجد المخطوط (أ) لا يهتم بهذا

(١) تتحدث سورة التوبة عن المنافقين والذين تخلفوا عن القتال فى غزوة تبوك وعن صفح الرسول عنهم، وقد اختتمت القصة فى هذا المخطوط بآية التوبة من هذه السورة: «لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة ...» إلى قوله تعالى: «ثم تاب عليهم ليتوبوا، إن الله هو التواب الرحيم»

(٢) ص ٤٥ ظ، س ١ ـ ٦

الحادث، ويكتفى بذكر الوحى الإلهى الذى نزل على النبى صلى الله عليه وسلم، يأمره بالقيام بتلك الغزوة.

وتستمر القصة فى (ب) بعد ذلك فى سردها فيأمر النبى عليا بكتابة خطاب إلى ملك الروم يشرح له فيه نبوته ومعجزاته، ويدافع فيه عن الإسلام، ويخيره بين الإسلام أو القتال. ثم دعا برسول يدعى «خاطر بن عامر العبسى» لكى يحمل الخطاب إلى هرقل، فأخذه ومضى إلى منزله، ولبس ثياب نفرة، وركب مطيته واستوى فى كور ناقته، ولزم زمامها، وأخذ يجد السير ليلا ونهارا، وعشيا وأبكارا، حتى غاب عن المدينة وغابت المدينة عنه، ثم إنه أنشد يقول، أفلح من يصلى على الرسول:

يـا نـوق سيـرى مـن بـلاد يثـرب
نحـو بـلاد الشـام فبكـى واطلبـى
فـى حاجة الهادى النبـى العـربى
أفـديتـه بـروح أمـى وأبـى
فهـو عمـادى عنـد كشف الكرب
يـا نفـس جـدى فـى المسير واقربى
اللـه ينجيكى مـن قضـاء الطلـب
أرض تبـوك فـى الظـلام اطلـبى
اطـوى الفيافـى فـى البيابى الخرب
معـى كتـاب مـن نبـى عـربى

قال الراوى رضى الله عنه: فبينما هو يهذى بهذه الأبيات وإذا بهاتف يسمع صوته ولا يرى شخصه يقول:

يـاصاحب الهـادى النبـــى اليثـربى
وفقـــك اللـــه لـدفـع الكـــربى
بـادر علـى اسـم اللـه لا ترتهـب
فـى حاجـة المختـار خيـــر العـــربى
اقصـد إلـى الشـام وجـد الطلـب
بلـغ رسـالات النبـى اليثـربى
تنال فى الجنان خير المطلب
من الإله القادر المهيمنى (كذا)[1]

«قال صاحب الحديث: فلما سمع خاطر هذه الأبيات فرح فرحا عظيما، وعلم أنه فى أمان الله تعالى، فجعل يجد السير ليلا ونهارا مدة عشرة أيام بلياليها: فلما كان اليوم الحادى عشر أشرف على بلاد الشام[2]» وهناك قابل الأسقف وسلم إليه الرسالة، ثم أرسل الأسقف رسولا من عنده يصطحب خاطرا ويوصله إلى دمشق حيث الملك هرقل. فلما اطلع هرقل على رسالة النبى عبر عن سخطه وغضبه بمفتريات على النبى وقومه، فرد على خاطر دعاواه، وخرج وهو ينذره بمجيء الرسول إليه، عند ذلك أخذت جيوش الرسول تستعد للرحيل، فأخذوا يجمعون الزاد، كما أخذ الأغنياء ينفقون ما عندهم، لكن الزاد لم يكن كافيا، فأمر النبى المحاربين أن يتزودوا من

(١) (ب) ص ٤٧ ط، س وما بعده.
(٢) (ب) ٤٨ و، س ١ ـ ٢.

حنظل كان ينبت فى واد قريب منهم، ففعلوا، دون أن يساورهم شك فى قيمة هذا الحنظل، إلا المغيرة بن شعبة، الذى كان يجمع الحنظل وهو يشك فى قيمته، ثم سارت الجيوش تجوب الفيافى، وعند ذلك أخرج المغيرة ما عنده من الحنظل ورماه فى القفر ولم يحتفظ إلا ببضع حنظلات منه، ثم أتاه عبده يسأله عن حنظله، فأخبره بأنه رماه، فتعجب العبد، وذكر سيده بأنه قد خالف أوامر النبى، بل قد شك فى معجزاته، قال له: «لقد أسأت الظن برسول الله، وأن الله قادر على أن يقول للشئ كن فيكون. فقال: والله لقد صدقت. ثم أنه كسر واحدة منه فخرجت مملوءة شهداً وزبداً طريا، أطيب من رائحة المسك، وأحلى من العسل[1]».

ثم يسهب المخطوط بعد ذلك فى وصف حماسة أبطال الجيش الإسلامى حينما أخذ النبى يوزع عليهم الرايات، ثم فى وصف مسيرة الجيش فى الصحراء، وتلك الحفاوة التى استقبل بها النبى من رجل يؤمن به يدعى فزارة. ثم استأنف الجيش بعد ذلك سيره حتى وصل إلى تبوك. وكان من بين القواد أبو بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وهناك دارت المعارك الطويلة والمبارزات الفردية بين الجيشين. وقد كان جيش الإسلام وأبطال المسلمين منتصرين دائما، فلما علم هرقل بذلك عبأ كل جيوشه للقتال، وأرسل جاسوسا يستطلع أخبار جيش المسلمين، فافتضح أمر الجاسوس، ولكن النبى عفا عنه، فولى راجعا، «فلما حضر قال له الملك: ماشاهدت؟ فقال أيها الملك: أيما أحب إليك: الصدق أم الكذب[2]».

(١) (ب) ص ٥٢ ظ، س ١٠ ـ ١٥.
(٢) (ب) ص ٦٦ و، س ٩ ـ ١٠.

فلما أمره الملك أن يقول ماعنده أخذ يمتدح الرسول، فثارت ثورة هرقل، وأمر بضرب عنقه. ثم استدعى قسا عنده كان عالما ودارسا للأديان حتى يسأله عن أمر النبى محمد، وقال له: «ألا تنظر إلى ما قد حل بنا من هؤلاء البادية وطمعهم فى بلادنا طالبين الثأر. فقال القسيس: أيها الملك لا تجزع، فلو كانوا ملء الأرض طولا وعرضا فإنهم هالكون، إلا أن يكون لهم سيد يرجعون إلى رأيه. فقال الملك: لهم سيد، يزعم أنه نبى مرسل. فقال القسيس: وما اسمه؟ فقال الملك: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، وكان قد ظهر هذا الزمان فقال الملك: هل له صفات عندكم فى الكتب السالفة فقال القسيس: نعم إنه صاحب التأويل، ويحفظ علوم الأولين والآخرين، وهو النبى الصادق الأمين[1]»، فعند ذلك أمر هرقل بقطع رأسه، فمات وهو يتشهد، ولم يجد هرقل بدا من أن يحمل على عسكر المسلمين بكل ما عنده من جيوش، وفوجئ المسلمون بهذا الحشد وحملوا على الروم، ولكنهم وجدوا أنفسهم ضعافا أمامهم. ولما قتل منهم عدد كبير أخذ اليأس يتسرب إلى نفسهم فاندفعوا إلى رسول الله يشكون إليه أزمتهم، فلما بث فيهم الشجاعة ووعدهم بالنصر خاضوا المعركة مرة أخرى، ولكنهم فشلوا، فلم يجدوا بدا من أن يفصحوا للرسول عن سبب هزيمتهم، وهو غياب على عن المعركة، فاعتذر لهم الرسول بأنه لم يكن السبب فى تغيب على، إذ قد أمر الله بذلك، وفى تلك اللحظة ظهر جبريل عليه السلام للرسول يبشره بحضور على إلى المعركة. ثم تستمر القصة بعد ذلك مسايرة

(١) (ب) ص ٦٦ ظ، س ١٠ ـ ١٧.

لخطوط القصة الأولى حتى ينتصر المسلمون بفضل بطولة على رضى الله عنه، ثم يرجع الجميع إلى المدينة.

فإذا حاولنا أن نقارن هذه القصة فى المخطوط (ب) بتلك التى عرضنا لها فى المخطوط (أ) وجدنا أن الدور الذى لعبه الخيال الشعبى فى (ب) أوضح منه فى (أ). فإذا كانت القصة فى (أ) قد حاولت أن تتقيد بالتاريخ حينما أتت بحادثة ضياع ناقة الرسول دلالة على معجزاته كما ذكرنا، نجد القصة فى (ب) قد أغفلت هذا الحادث واخترعت شيئا آخر، فأتت بحادثة المغيرة والحنظل، هذا بالإضافة إلى تلك التفصيلات الكثيرة التى أضافها القاص من وحى خياله. من قبيل ذلك إرسال النبى رسوله يحمل رسالة إلى هرقل، وحديث الرسول مع نفسه فى الطريق، ثم سماعه لذلك الصوت السماوى المطمئن له، ثم الحديث الذى دار بينه وبين هرقل. ومن ذلك أيضا حادثة القس الذى أعلن شهادته أمام هرقل.

بعد هذا نعرض المخطوط (ج)، وهو يعد رواية ثالثة للقصة. فبينما يتفق مع المخطوطين السابقين فى بعض الحوادث إذا به ينفرد عنهما ببعض الحوادث والمواقف. فهو يتفق مع (أ) تماما فى بدايته، ويمضى بعد ذلك مع (ب) فى سرد قصة الرسول الذى أرسله النبى إلى هرقل مع شئ من الإيجاز، واسم الرسول بهذا المخطوط هو حاطب بين ثعلبة. ثم تصف القصة بعد ذلك رحلة النبى إلى تبوك، لكنها لا تورد حادثة ناقة النبى صلى الله عليه وسلم كما هو الحال فى المخطوط (أ)، كما لا تورد حادثة المغيرة بن شعبة والحنظل،

كما هو الحال فى المخطوط (ب)، أما حادثة الجاسوس الذى أرسله هرقل إلى المسلمين ليستطلع أمورهم، التى ذكرت فى كلا المخطوطين (أ، ب) وكذلك حادثة القس الذى دافع عن النبى فى حضرة هرقل، التى ذكرت فى (ب)، فتردان فى هذا المخطوط.

أما الشئ الذى ينفرد به (جـ) فهو تصويره لبعض الحوادث، وكذلك إضافته بعض التفصيلات، لقد صور القاص الروم على أنهم قوم يعبدون الأوثان، وليس فى ذلك شئ من الغرابة بالنسبة للتصور الشعبى، فالروم فى هذا التصور قوم كفرة. وكما كان العرب الجاهليون كفرة يعبدون اللاة والعزى، فكذلك كان الروم. وها هو ذا هرقل يقسم بالأصنام ليحطمن دين الإسلام: «فوحق اللاة والعزى، والصنم الكبير والهبل الأعلى، لأقتلن أولهم وآخرهم[1]».

وكذلك بالغت القصة فى (جـ) فى تصوير حادثة القس، فهو إذا كان فى (ب) قد دافع عن النبى ثم استسلم لسيف هرقل وهو يتشهد، فهو فى (جـ) بطل مغوار، قتل سبعمائة من حاشية هرقل فى ضربة واحدة، ولكنه مع شجاعته لم ينج من شركه، فوقع شهيدا بضربة من سيف هرقل.

وينفرد هذا المخطوط عن المخطوطات الأخرى بذكره سببا لرجوع على إلى المدينة، تقول القصة:

«فنزل جبريل على النبى صلى الله عليه وسلم وقال: يامحمد، العلى الأعلى يقريك السلام، ويخصك التحية والاكرام، ويقول لك رد عليا إلى المدينة ليحفظها[2]». ولما استدعى النبى عليا فى تبوك

(١) (جـ) ص ٢٨ ظ، س ١١ ـ ١٣.
(٢) (جـ) ص ٢٦ و، س ٣ ـ ٥.

أخبره على بأن رجوعه إلى المدينة كان أمرا مهما، وأن الله عليم بكل شئ، قال له: «حين رجعت من عندك إلى المدينة رأيت خمس آلاف فارس قاصدين المدينة يريدون يقطعون النخل ويكسبون المدينة، فحملت عليهم وقتلتهم عن آخرهم، ففرح النبى صلى الله عليه وسلم واستبشر[1]».

أما المخطوط (د) فالصفحة الأولى منه تشير إلى أن القصة مفقود أولها، إذ أن هذه الصفحة لا تحمل عنوانا للقصة، فضلا على أن سطورها الأولى لا تنقل إلينا البداية التى بدأت بها المخطوطات السابقة، أو أية بداية أخرى تصح أن تكون بدءاً للقصة، ففى أول هذا المخطوط نقرأ: «وقد حملوا الكفار على جيش الأبرار، وأقبل ذلك الغبار، وقد حمل الأمير خالد، وهدر وهز العمد وزمجر، ثم كب رأسه فى قربوس سرجه وصرخ: لا غالب إلا الله. ثم حمل المقداد، وتبعتهم المسلمين كأنهم الآساد»[2].

القصة إذن فى هذا المخطوط ناقصة، ولا ينقل إلينا المخطوط سوى تلك الصفحات التى تصور المعركة قرب نهايتها. ومن هنا لا تتضح وجوه المقارنة بين تفصيلات الحوادث فى هذا المخطوط وما سبقه من المخطوطات، وإنما الشئ الذى يتميز به هذا المخطوط هو أسلوبه. فمؤلف القصة هنا يكثر من السجع والأسلوب النثرى المسجوع.

يبقى بعد ذلك من المخطوطات العربية المخطوط (هـ). والقصة تعرض فى هذا المخطوط شعرا، وبداية القصة مفقودة هنا كذلك، فالمخطوط يبدأ بهذه الأبيات:

(١) (جـ) ص ٣٤ ظ، س ١٣ ـ ١٦.
(٢) (د) ص ٤١٤ ظ، س ١ ـ ٤.

إن الملـــوك مـــا أقـــامـــوا الـــوزرا
إلا لينفـــذ أمـرهـم بـيـن الـــورا
ساعة وصـــول ذا الكتاب لعندكا
يا بولص انهض عاجلا من وقتكا
واجـمـع الأبـطـــال والجـحـافـل
مـن كـــل لـيـث بطـل مقـاتـل
وامضى بهـم مـن كـل بـد وسبب
وأقصـد إلـى أرض الحجـاز والعـرب
واقـطـعـــوا الأرض باهتمـامـى
مـا بـين شـرب مـع بـلاد الشـامى
ومـــا لأحـــد عنـــدنا جـــوابـــا
إلا بضـــرب السيـــف والحـــرابا[1]

فلا بد أن هرقل يوجه هذا النداء لوزيره نتيجة حادثة معينة قد تكون وصول رسول النبى إليه، أو وصول جيش المسلمين إلى تبوك.

أما تفصيلات حوادث القصة الشعرية بعد ذلك فإنها تكاد تتفق تماما فى تسلسلها مع المخطوط (ب)، ولا تختلف عنه إلا فى عدم ذكرها لحادثة الجاسوس الذى أرسله هرقل ليستطلع أحوال جيش المسلمين، وحادثة القس الذى دافع عن النبى صلى الله عليه وسلم

(١) (هـ) ص ٧٢ و، س ١ ـ ٦.

ضد مزاعم هرقل. ويكاد يكون هذا المخطوط أروع المخطوطات العربية تعبيرا عن حوادث القصة، إذ لم يكن هدف الشاعر حكاية القصة فحسب، ولكنه أراد أن يصور لنا الحركة المتواصلة منذ أن تجمعت الجيوش الإسلامية غازية لأراضي الروم إلى أن انتهت المعركة أو قاربت الانتهاء[1]. ولما كان غرض الشاعر هو التصوير وعرض الحوادث لا مجرد حكايتها، فإننا نجده يستخدم الوسائل التعبيرية التى تعينه على ذلك، وليس هناك من تعبير يثير حماسة القارئ أو السامع ويجعله يرى الحوادث مصورة فى مخيلته كما لو كان يشاهدها أمامه، ويتحرك معها نفسيا، مثل أسلوب الحوار. وهذا هو الأسلوب الذى صاغ فيه الشاعر الحوادث فى قصيدته، فقد بدأها بنداء من ملك الروم إلى وزيره بولص، فما أن سمع بولص كلام ملكه حتى كتب إلى النبى صلى الله عليه وسلم يبين له نتيجة غزوه لهم. وما لبث الرسول أن عاد برسالة أخرى من النبى، ودخل على بولص وحوله «الكفار كالأبالسة»، وكأنما كانوا يتدبرون أمرهم، وينتظرون فى لهفة رد النبى صلى الله عليه وسلم. فما أن قرئت عليهم رسالة النبى صلى الله عليه وسلم حتى قامت ثورة بولص، وقال من فوره للرسول:

قـــال استمـــع يـــا ذا الفتـــى كتابنـــا
وامضـــى وبلـــغ صاحبـــك جوابنـــا
وقـــل لـــه مـــا عنـــدنا جـــوابـــا
إلا بضرب السيف والحرابا

(١) الجزء الأخير من القصة مفقود، وهو الذى يتناول حادثة مجئ على إلى تبوك، وشهوده المعركة.

نحـــنا أســـود البـــر مـــا نبـــالى
فـــى معمـــع الخـــيل ولا النضـــال
جهـــز لنفســـك والتقينـــا عاجـــلا
فـــإن عسكـــرنا إذا بـــواصـــلا
أنتـــم أســـود البســـر والقفـــارى
واحنـــا ليـــوث الحـــرب فـــى البرارى
ولست تخـدعـــنا بـــذا الكـــلام
ونحـــن أعلمـــناك لا مـــلامى[1]

ولكن النبى صلى الله عليه وسلم لم يزعجه رد بولص، وبدأ يعد العدة للقتال، فنادى بلالا يدعوه للأذان ولدعوة العرب إلى الاجتماع بالرسول. ثم ارتقى النبى صلى الله عليه وسلم المنبر وأخذ يخطب فيهم. ولم يرد الرسول صلى الله عليه وسلم من وراء ذلك دفعهم إلى القتال دفعا، وإنما أراد أن يعرض الأمر عليهم ويستشيرهم فيه. قال:

كونـوا أعلمـوا أن الجهـاد فرضـى
عليكمـوا فـى طـولها والعـرضى
وقـــد أمـــرنى المـــلك الجبـــارى
نـأخـــذ بتـــار جعفـــر الطيـارى
ومـــن قتـــل معـه مـن الإسلامى
فمـا تقـولـوا معـشـر الكـرامـى[2]

(١) (هـ) ٧٢ و، الأبيات ١٢ ـ ١٧.
(٢) (هـ) ص ٧٢ ظ، الأبيات ٣٠ ـ ٣٢.

فما كان رد المسلمين عليه إلا تعبيرا عن الرغبة الخالصة والاستعداد التام للاشتراك فى القتال:

قالوا جميعا يا رسول الله
يا أكرم الخلق على الإلهى
احنا لما تقول طايعينا
وأمرك المطاع يا أمينا
ولو تقول شيلوا الجبال شلنا
ولو تقول قاتلوا قاتلنا
ولو تقول خوضوا البحار خضنا
ولو تقول هينوا النفوس هنا[1]

فما أن اطمأن النبى لاستعدادهم الخالص لخوض المعركة معه حتى أخذ فى تجميع الجيوش من شتى القبائل والبقاع، وسارت الجيوش متفائلة مستبشرة.

ثم تذكر القصة بعد ذلك حادثة المغيرة والحنظل. وها هو ذا المغيرة يحكى قصته بنفسه:

فقال مغيرة كنت يا أصحابى
مع النبى المصطفى الأوابى
نزلت من وقتى عن حصانى
وقد جمعت حنظلا يكفانى

(١) (هـ) ص ٧٢ ظ، الأبيات ٣٣ ـ ٣٦.

وسرت طالبا طيبة الأمينة

وقد علتنى هيبة السكينة

فبينما أقطع المسيرى

فاختلج يا قوم فى ضميرى

وقلت هذا حنظل كالعلقمى

والله ما فيه لزاد يطعمى

ولا رأيته أبدا فى فايدا

تالله ما فى حمل هذا فايدا

فصرت أرميه ونا فى القفرا

حتى بقى من الجميع عشرا

فبينما أنا ساير بجهدى

فالتقانى فى الطريق عبدى

وكان من بين العبيد صالح

وشاطر فى حربه وفالح

فقال يا مولاى فين الزادى

اللى أوهبو لك النبى الهادى

فقلت يا ذا الفارس المغفل

زودنا محمد بالحنظل

فقال أين الزاد يا مولاى

أخبرن برافع السماء (ى)

فقـلت لـه أرميـته بجمـعه
فقال لـى أخطـيت وفاتـك نفعـه
أمـا علمـت سـيدى أن النبـى
صلـى عليـه ربنـا فى الكتبـى[1]

وبعد ذلك يستمر الشاعر فى سرد القصة وتصوير حركتها، فيرسم أمامنا صورة النبى صلوات الله عليه، وقد نظمت حوله الجيوش إلى كتائب على رأس كل كتيبة قائد. وتأخذ الحماسة الأبطال فيهتف أحدهم:

سيروا بنـا يـا معشـر الإسـلامى
علـى اسـم رب مـلك عـلامى
أنـا الفتـا المقـداد بـن الكنـدى
وفـى الفـوارس بطـل مفنـدى
أضـرب فيهـم بحـسام هنـدى
وأجـول فـى جيـش اللـيام وحـدى
وانـعزل مـن وقتـه وساعتـه
وسـارت الأبـطال تحـت رايتـه[2]

وينشـد الآخـر:

نسـير للأعـلاج والأورامـى
وافنيهـموا بالصـارم الحسـامى

(١) (هـ) ص ٧٣ ظ، الأبيات ٨١ ـ ٩٤.
(٢)(هـ) ص ٧٥ و، الأبيات ١١١ ـ ١١٤.

نسير لبولص والهرقل النمامى

نقاتله ونفنى الليامى[1]

وقبل أن يصل الجيش إلى أرض تبوك إذا بالنبى صلى الله على وسلم يتوقف ويستدعى عليا، ويطلب منه الرجوع إلى المدينة لأن الوحى قد أنبأه بذلك. فرجع على مذعنا لأمر الله ولرغبة رسوله. ثم استأنف الجيش سيره حتى التقى بجيش الروم، وأخذ كلا المعسكرين ينافس الآخر فى إرسال المحاربين إلى ميدان القتال، فأحيانا ترجح كفة المسلمين وأحيانا ترجح كفة الروم، وكأننا نستمع لاستغاثات الأبطال من خلال ألفاظ القصيدة. فهذا بطل مسلم قد انسحب بكتيبته أمام جيش الروم وجاء يشرح لقائد الجيش الإسلامى خالد بن الوليد سبب اندحاره، وكأنما يطلب منه الصفح:

لما رأيت القوم كالبحار

وأقبلوا من ساير الأقطار

ولت جميع رفقتى وانهزمت

وأبطالنا لعندكم قد عزمت[2]

وهذا العباس عم النبى يشتكى لرسول الله:

فقال له العباس يا حبيبى

يا صفوة الله العلى المجيبى

(١) (هـ) ص ٧٥ و، الأبيات ١٢٠ ـ ١٢١.

(٢) (هـ) ص ٧٧ ظ، البيتان ٢٢٤ ـ ٢٨٤.

لـــو سلـمونـــا كلهـم أرواحـهم

كنـا عجـزنا كلـــنا عـن ذبحهم[1]

ولكن النبى أخذ يطمئنه:

قـــال النـبى يـاعـم لا تبـالى

معـــنا الإلـــه الواحـــد المتعـــالى

لقـــد وعـــدنا خالقـــى بالنصـرى

وهو معى فـى عســرها واليســرى[2]

فلما تأزمت الأمور بين جيوش المسلمين وغلبتهم جيوش الروم لم يجد العباس بدا من أن يصارح النبى بسبب هذه الأزمة التى حلت بهم:

فعندها قـــد خـــرج العبـــاسى

عـم النبـــى طاهـــر الأنفـــاسى

وسيـــفه فـــى يـــده وترســـه

ينفـــض مـــن دم العـــدا نفســـه

ولـــم يـزل ساير مـن غيـــر خفـا

حتى أتـى إلـى النبـى المصطفى

(١) (هـ) ص ٧٩ و، البيتان ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

(٢) (هـ) ص ٧٩ و، البيتان ٢٨٥ ـ ٢٨٦.

قال للهادى النبى يا سيدى
لو كان معنا فرد فارس واحدى
لا كان محيى عسكر الكفارى
ويفنى الأعلاج والفجارى
فعندها قال النبى المرسلى
عن من تقول؟ فقال مولانا على
فعندما قال صاحب السكينة
إن عليا يا عم فى المدينة
وبيننا وبينه أيامى
ونحن ياعم بأرض الشامى
ارجع وقاتل عسكر الجهالى
وحرض القوم على القتالى[1]

فعند ذلك رجع العباس يخوض المعركة مرة أخرى مع أبطال المسلمين، ولكن دون جدوى.

وإلى هنا ينتهى نص القصة الشعرية، ولا بد أن القصيدة تمضى مع حوادث القصة النثرية حتى النهاية، لولا أن المخطوط لا يتضمن القصيدة بأكملها.

وإلى جانب أسلوب الحوار الذى تعرض فيه القصيدة القصة نجد الأسلوب الانفعالى. فالقصيدة تختار من الألفاظ ما يصور الانفعالات

(١) (هـ) ص ٨٠ و، الأبيات ٣٢٥ ـ ٣٣٣.

تصويرا واضحا. فنحن نقرأ انفعال الغضب على وجه هرقل حينما وافته الأنباء عن تجمع جيوش المسلمين على حدود أراضيه. ونقرأ أثر تهديد بولص على رسول النبى صلى الله على وسلم فى أثناء رجوعه إلى المسلمين يحمل إليهم تهديد هرقل وعزمه على تخريب ديارهم:

فارتجـــع القاصـــد بالسكـــينة
فـى سيـره حتـى أتـى المدينة[1]

ونقرأ الهدوء والاطمئنان اللذين انطبعا فى قلب النبى صلى الله عليه وسلم حينما قرئت عليه رسالة هرقل. ثم نقرأ السعادة التى ملأت قلوب الأبطال بعد أن تسلموا الرايات من الرسول صلى الله على وسلم وساروا قدام الجيوش عازمين على النصر.

ومن الواضح أن الشاعر كان يضع دائما نصب عينيه هدف رواية القصيدة على سامعيه. ولذلك كان حريصا على استعمال ألفاظ النداء وسيلة لتنبيه السامع. ومن أمثلة ذلك:

ثـم طـوى ذاك الكتـاب الجـاحـدا
وأرســـله ياقـــوم بيـــد القاصـــدا[2]
فعـنـــد ذاك صـــارت السعـــاتى
إلى الغبار يامعشر الساداتى[3]

(١) (هـ) ص ٧٢ و، البيت ١٨.
(٢) (هـ) ص ٧٢ و، البيت ٨.
(٣) (هـ) ص ٧٦ ظ، البيت ٨٦.

وكـــان ميخـــايل يـــا حضـــارى
مقبـــل فـــى السيـــر مع الكفارى[1]

ولذلك أيضا كان الشاعر حريصا على إقناع السامع بحقيقة هذه الأخبار عن غزوة تبوك. فإذا ورد ما يمكن أن يشك السامع فى صحة الخبر، نسبه توا إلى الرواة:

حتـــى قتـــل مـــن عســـكر الإسلامى
ميـــة كـــما قـــد قيـــل فى الكلام[2]

ولما كان الشاعر حريصا على تجديد نشاط السامع وجلب المتعة إلى نفسه، لا عن طريق القصة فحسب، وإنما عن طريق النغمة الموسيقية التى تلازم الشعر، فقد تخلى القاص عن نظام القافية الواحدة، واختار بحر الرجز يصوغ فيه شعره حتى يكون قريبا من النثر الموزون، أى من اللغة العادية.

بعد هذا نعرض لمخطوط السواحيلى. وقد ذكر الشاعر فى بداية هذا المخطوط السبب الذى دعاه إلى كتابة هذه القصة. قال: «إن أحد الأشراف قد وصلت لحوزته القصة العربية ونالت قدرا كبيرا من إعجابه، فاستدعانى وطلب منى أن أترجم هذه القصة، فجلست معه وأخذ يشرح لى ألفاظ القصة العربية وعباراتها[3]».

وفى نهاية المخطوط يذكر الشاعر أنه قد فرغ من قصيدته، ويعتذر

(١) (هـ) ص ٧٧ و، البيت ١٩٨.
(٢) (هـ) ص ٧٧ و، البيت ٢٠٧.
(٣) (و) ص ٥٢٤، الرباعيات ٧ ـ ٩ من الترجمة الألمانية.

عن وقوع بعض الأخطاء بأنه لا يتقن صنعة الشعر. وتتألف هذه القصيدة من ألف بيت وسبعة أبيات من الشعر، وتأخذ شكل الرباعيات، وقد سبق أن أشرنا إلى أن الشعب السواحيلى قد اصطنع الأوزان الشعرية العربية. ووزن القصيدة السواحلية التى نحن بصددها يعد دليلا على هذا، فهى من مجزوء الرمل. هذا بالإضافة إلى أن القصيدة تتضمن بعض الألفاظ العربية مثل: صفة، الودود، الأمير، يافهيمى، وغير ذلك.

وإذا كان الشاعر قد اعترف أن قصيدته ترجمة لقصة عربية فلا نحسبها إلا ترجمة للقصة كما هى فى المخطوط (ب)، فتفصيلات الحوادث وترتيبها فى (و) هى بعينها فى (ب). هذا فضلا على أن المخطوط (و) يتضمن ترجمة حرفية لبعض نصوص (ب)، وهذه شواهد على ذلك:

فالقصة فى (و) تذكر فى بدايتها كما هو الحال فى (ب) خبر نزول جبريل عليه السلام على النبى، بينما كان جالسا للعزاء فى الذين استشهدوا فى غزوة مؤتة. ثم تسير معها بعد ذلك خطوة خطوة، فتذكر استدعاء النبى عليا لكى يكتب له كتابا إلى ملك الروم. ثم تسليم النبى الكتاب إلى رسوله لكى يوصله إلى هرقل، ثم تصف بعد ذلك رحلة هذا الرسول، كيف سار فى الطريق يتغنى بشعره، وكيف سمع صوت الملك الذى بشره بنجاحه فى مهمته، ثم كيف تقابل مع الأسقف الذى أرسله بدوره إلى ملك بدمشق، ثم كيف أخذ يرد على الملك دعاواه ضد الإسلام، وكيف رجع أخيرا إلى النبى صلى الله على وسلم يحمل إليه عزم هرقل على مقابلته

فى ميدان القتال. كل ذلك وما يليه من الحوادث التى ذكرت فى (ب) ويذكره (و) مرة أخرى. فإذا أردنا بعد ذلك أن نتحقق من أن (و) ليست سوى نسخة أخرى للمخطوط (ب)، فما علينا إلا أن نقارن بين المخطوطين فى بعض التفصيلات والعبارات التى تؤكد دعوانا. ففى (و) أملى النبى صلى الله عليه وسلم كتابه على علىّ رضى الله تعالى عنه فقال: «خذ يا علىّ القلم والورق واكتب ما أمليه عليك. ابدأ باسم الله، وأثنى باسم الرحمن الرحيم، حتى تعرف صفات الله تعالى، فأنا الذى نزل عليه الوحى، أنا محمد المختار، الهادى المهدى، امتطيت ظهر البراق، وجزت أطباق السماء، ثم مثلت بين يدى الخالق فأخذ يتحدث إلى، وأنا أجلس قريبا منه، وأخذ يكشف لى عن معنى القرآن حتى وعيته[1]»، ثم أتبع ذلك نص القرآن فى قوله تعالى: ﴿ثم دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، ما كذب الفؤاد ما رأى، أفتمارونه على ما يرى﴾.

وفى (ب) أملى النبى صلى الله عليه وسلم كتابه على على، فقال: «أكتب يا علىّ باسم الله الرحمن الرحيم. من البشير النذير، السراج المنير الراكب على البراق، المخترق السبع الطباق، ومناجى الملك الخلاق، الذى دنى فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، محمد بن عبد الله، إلى سائر خلق الله تعالى، هرقل بن يعقوب المقدم بدمشق[2]».

(١) (و) ص ٩ ـ ١٠، الرباعيات ٤٣ ـ ٤٧.

(٢) (ب) ص ٤٦ و، س ٩ ـ ١١.

أما الأغنية التى كان يتغنى بها «خطارى» فى الطريق (وخطارى هو رسول النبى صلى الله عليه وسلم فى (و) وهو خاطن بن عامر العبسى فى (ب)، فهى: «يا ناقتى أسرعى بمطلب رسول الله، حماك الله، اننى أفديه بروحى وأمى وأبى، لكى أفوز بمحبة الله ومحبته، فأسرعى إلى حيث ألقى الشدائد، والله فى عونك[1]».

فإذا رجعنا إلى الشعر الذى كان يتغنى به خاطر فى (ب) فإننا نجد التشابه الكبير بين كلا النصين.

ومثل هذا التشابه بين النصوص يصادفنا مرة أخرى فى كلا المخطوطين (ب) و (و)، ففى (و): «سأل النبى رجلا محبا للاستطلاع قائلا: لقد جمعت المحاربين فهلا أخبرتنى إلى أين تمضى بهم، إننى لم أر مثل هذه الحشود تجتمع لكسرى أو لقيصر»[2]. وفى (ب) جاء رجل من بنى عامر وسأل الرسول: «يا رسول الله، قد اجتمع لك عسكر ما اجتمع لكسرى ولا لقيصر، فأين تريد بهم»[3].

ومع هذا الاتفاق بين المخطوط السواحيلى (و) والمخطوط العربى (ب) فإن هناك نواحى اختلاف بين المخطوطين. فإذا كان المخطوط (ب) قد اكتفى بذكر رحيل عمر بن الخطاب وأبى بكر وعثمان مع النبى، فإن الشاعر هنا فى (و) قد جعل لهؤلاء الثلاثة دورا فى القتال، وبخاصة عمر بن الخطاب. لقد حارب عمر مع الجيش، بل حارب قائد الجيش الرومى فى مبارزة فردية وقتله، ولم يزل عمر

(١) (و) ص١٦، الرباعيات ٩٤ ـ ٩٧.
(٢) (و) ص ٣٥، الرباعيتان ٢٣٤ ـ ٢٣٥.
(٣) (ب) ص ٥١ ظ، س ١٥ ـ ١٧.

ابن الخطاب يحارب حتى خارت قواه فى النهاية، بعد أن تجمعت جيوش الروم حول الجيش الإسلامى المحارب وقتلت منه عددا كبيرا. وحينئذ كف عمر عن القتال، وهرب المسلمون إلى النبى يخبرونه بالهزيمة، وإلى جانب هذا نلاحظ أن المخطوط (و) صور حادثة عثمان بن عفان حينما كان يزود الجيش الإسلامى بما عنده من زاد بشئ من الإختلاف. فالتاريخ يثبت أن عثمان بن عفان كان أكثر الناس نفقة فى تلك الغزوة ـ كما ذكرنا، والمخطوط (ب) يذكر أن بعض الناس ذهبوا إلى عثمان ليتزودوا منه، «وكان عنده قوت فأربحوه فى الدرهم درهمين، فأبى ولم يقبل، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله: ائتونى بعثمان بن عفان، فلما أتى عثمان فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لم لا تبيع القوت لإخوانك المسلمين؟ فقال يا رسول الله، أربحونى فى كل درهم عشرة دراهم، فقال له النبى افعل ما بدالك، بارك الله فيك يا عثمان. فقال عثمان: والذى اصطفاك بالحق نبيا إنما إنا جمعت هذه العنابير لإخوانى المسلمين لمثل هذا اليوم لأصدق فيه لحب الله وحبك يارسول الله[1]». أما المخطوط (و) فيصور عثمان حريصا على ماله، مترددا فى إنفاقه، حتى استدعاه النبى وقال له: «هل تريد أن تجمع المال لتخزنه فى بيتك يا عثمان، أم تريد جزاء أكبر. إنه لعار عليك يا عثمان، فقال عثمان للنبى: إنه فى وسعى أن أربح فى الدرهم عشرة دارهم، ولكننى لا أطلب ثمنا لما عندى، فأنا أريد جزاء أكبر فى الحياة الآخرة. حينئذ قال له الرسول: أفعل ما بدالك[2].

(١) (ب) ص ٥١ ظ، س ١٥ ـ ٢٠.

(٢) (و) ص ١٠٩، الرباعيات ٢٥٥ ـ ٢٥٨.

هل نفهم من هذا الاختلاف بين المخطوطين أن الأصل الذى نقل عنه الشاعر السواحيلى كان مخطوطا آخر غير (ب)، وأن هذا المخطوط ربما كان نسخة محورة من (ب)، أم أن هذا الاختلاف كان مصدره الشاعر نفسه حينما أظهر عثمان فى مظهر المتقاعس عن نصرة جيش المسلمين، إلا أن يلومه النبى صلى الله عليه وسلم ويعيره، كما أظهر عمر بن الخطاب فى صورة البطل الذى ما تلبث قواه أن تخور فيهزم هو وجيشه؟

* * *

وإلى هنا ينتهى عرضنا للمخطوطات التى احتفظت لنا بقصة غزوة تبوك. فإذا قارنا بعد ذلك بين هذه القصة وما يذكر فى التاريخ بشأن هذه الغزوة استطعنا أن نلمس الفرق واضحا بين هاتين الصياغتين، فبينما نجد التاريخ لا يذكر هرقل وبولص، وينفرد بذكر إتمام الصلح بين النبى صلى الله عليه وسلم ويوحنة بن رؤبة صاحب أيلة الموالى للروم، وموافقته على دفع الجزية للنبى، نجد القصة تهمل حادثة هذا الصلح، وتجعل إطار الحوادث يمتد فى اتجاه آخر، هو قيام حرب حقيقية بين جيش المسلمين وجيش الروم.

وبينما يذكر التاريخ حادثة إرجاع النبى صلى الله عليه وسلم لعلى إلى المدينة دون اهتمام بهذه الحادثة، نجد القصة تهتم بها إلى درجة أن تجعلها محور سردها، فإرجاع النبى صلى الله عليه وسلم لعلى إلى المدينة، وعدم سماحه له بأن يشترك فى تلك الغزوة الانتقامية من الروم، أمر عظيم فى تصور المسلمين، إذ أن عليا فى

نظرهم يعد سيف الإسلام، وبدونه لايتم نصر المسلمين، فكيف إذن يبقيه النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة ويرحل دونه لحرب تبوك. إن ذلك لم يكن من السهل إدراكه، ولذلك فقد اخترع خيال القاص سببا لإبقاء على فى المدينة. وقد تبين أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يفعل ذلك إلا بوحى من السماء. ثم امتد القاص بعد ذلك بخياله فصور المعركة فاشلة بالنسبة للمسلمين، الأمر الذى جعل النبى صلى الله عليه وسلم نفسه يحس بحاجته الشديدة لابن عمه. فما إن تمنى حضوره حتى وصل على بأمر الله فى لمح البصر. وسرعان ما حمل على رضى الله عنه على الكفار حتى تم النصر للمسلمين، وبذلك أنقذوا من هزيمة محققة.

وبعد أن تبينا الاختلاف بين ما ورد فى التاريخ وفى القصة الشعبية بشأن غزوة تبوك يصح أن نتساءل: ما الباعث على تأليف هذه القصة الشعبية؟ أهو الحرب بين المسلمين والروم، والإجابة عن هذا السؤال لا تحتاج إلى تردد أن الباعث الأول على تأليف هذه القصة إبراز بطولة على بن أبى طالب النموذجية، ولكننا يجب ألا ننسى أن اشتباك المسلمين مع الروم كان باعثا آخر على تأليفها وإن كان يأتى فى المرتبة الثانية. وربما يعرض معترض بأنه كان من الأحرى أن تؤلف هذه القصة حول غزوة مؤته التى تعد أول احتكاك بين المسلمين والروم ومن والاهم من العرب، وهنا نجيب بأن القاص لم ينسى تلك المعركة، فتصوير الأزمة التى حلت بالمسلمين فى تبوك ـ بحسب القصة ـ لم يكن إلا صدى للأزمة الحقيقية التى حلت بالمسلمين أن مؤته، والتى انتهت بهزيمة جيش النبى صلى

الله عليه وسلم فى أول معركة له مع الروم. وكذلك كان ظهور هرقل فى قصة تبوك صدى لما حدث فى غزوة مؤتة، فالثابت تاريخيا[1] أن جموع هرقل من الروم والعرب قد حاربت ضد البعثة التى أرسلها النبى صلى الله عليه وسلم لتستطلع الأمور فى مؤتة.

ولم يحاول القاص والشاعر الشعبى أن يخصا هذه الغزوة ـ غزوة مؤته ـ بقصصهما لحرصهما دائما على تصوير انتصار المسلمين لا اندحارهم.

ويبقى الآن أن نشير إلى تاريخ تأليف هذه القصص. وهنا نجدنا نواجه مشكلة مؤلفيها. وقد سبق لنا أن ذكرنا قصة من بين هذه القصص تحمل اسم راويها وهو أبو الحسن البكرى. فمن أبو الحسن البكرى؟

تشير بعض القصص التى رواها غير هذه القصة إلى أنه كان واعظا بصريا[2]، وفيها يرد اسمه كاملا: أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن محمد البكرى الواعظ البصرى. ولكن فى أى زمن عاش هذا الراوى؟ وهنا لا تمدنا النصوص بجواب قاطع. وسنعرض هنا الآراء التى ذكرت بشأن هذا القاص، لعلنا نستطيع أن نستخلص رأيا يعيننا على الوصول إلى تاريخ هذه القصص وإن يكن هذا التاريخ تقريبيا.

يقول سركيس فى معجمه: «أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن محمد ـ لا يمكن التحقيق عن هذا المصنَّف الذى تنسب إليه الكتب الأتية، وهى تتضمن حكايات غير ثابتة:

(١) ابن هشام ـ السيرة، جـ ٢ ص ٣٧٧.
(٢) انظر فهرس المخطوطات العربية ببرلين، جـ ٩ ص ١٧٩.

١ـ غزوة الأحزاب، وما جرى للإمام على الغلاب الوثاب، والصحابة والأحباب.

٢ ـ فتوح اليمن أو غزوة راس الغول.

٣ ـ قصة إسلام الطفيل بن عامر»[١].

ويذكر الأب شيخو اليسوعى فى كتابه مجانى الأدب نصا عن الصفدى دون ذكر للمرجع الذى نقل منه النص، يشير إلى أن أبا الحسن البكرى هذا كان قد اشتهر بالكذب[٢]. أما كتاب شرح مجانى الأدب فقد قال عنه دون أن يذكر مرجعه: «هو أبو الحسن أحمد بن عبد الله الكبرى صاحب كتاب الأنوار ومفتاح السرور والأفكار فى مولد محمد. وله أيضا كتاب الحكم وغير ذلك، ولا يوثق بروايته. كان يخلق الكلام كثير الكذب، توفى فى أواسط القرن الثالث للهجرة[٣]».

وكذلك أورد القلقشندى اسم هذا الراوى فى كتابه صبح الأعشى فى فصل «من كان فردا فى زمانه بحيث يضرب به المثل فى أمثاله» فقال: «وأبو الحسن البكرى فى الكذب[٤]».

وقد استعان الدكتور «باريت» بنص الصفدى عن أبى الحسن البكرى الذى ساقه الأب شيخو فى كتابه مجانى الأدب دون تحديد

(١) سركيس: معجم المطبوعات العربية والمعربة، عمود ٥٧٨.

(٢) شيخو اليسوعى: مجانى الأدب فى حدائق العرب، بيروت ١٨٨٥، جـ ٢ ص ٢٣٤.

(٣) أحد الآباء اليسوعيين: شرح مجانى الأدب، بيروت ١٨٨٦، جـ ٧ ص ٣١٢

(٤) القلقشندى: صبح الأعشى، القاهرة عام ١٩١٣ جـ ٢ ص ٤٥٤.

لمرجع الصفدى ـ استعان به فى تحديد الزمن الذى عاش فيه أبو الحسن البكرى. فلما كان الصفدى قد توفى عام ٧٦٤هـ، ولما كانت بعض المخطوطات التى تتضمن قصصا شعبية فى الغزوات وغيرها، والتى نجد بعض قصص أبى الحسن البكرى قد جمعت معها فى مجلد واحد، تشير إلى أن أحد مؤلفى بعض تلك القصص توفى عام ٦٩٤ هـ، فقد استنتج الدكتور «باريت» أن أبا الحسن البكرى هذا قد عاش على وجه التحديد فيما بين ٦٩٤ هـ (أو قبل ذلك قليلا كما يقول) و ٧٦٤ هـ[١].

هذا إلى جانب أسباب أخرى قدمها الدكتور «باريت» للاستدلال على تأخر زمن تأليف هذه القصص، وهى: «أن محتوى قصص السيرة هذه وأدب المغازى إنما يتوافق مع العصر الذى وصل فيه تأثير التراث الاسلامى ذروته، والذى اتسع فيه نطاق الإيمان بالأضرحة والأولياء إلى الحد الذى جعل ابن تيمية (توفى عام ١٣٢٨م) يعلن سخطه[٢]».

ويذكر أحد الباحثين قصة لعلى بن أبى طالب تتفق والقصص الذى نحن بصدده فى مسألة بطولته النادرة. فالقصة تذكر «أن فاطمة بنت أسعد بن هشام ـ أم على ـ رأت فى منامها قبل أن تضع عليا أن النور يملأ حجرتها، وأن الجبال التى تحيط بالكعبة تسجد خشوعا، بينما كانت تحمل فى يدها أربعة سيوف. وفجأة وقع أحد

(١) Rudi Paret: Die Legendare Maghazi - Literatur, Verlag von J.C.B. Mohr.

(٢) Ibid J.P. 150.

هذه السيوف فى الماء وطار الآخر فى الفضاء متجها نحو السماء ثم اختفى، وحاول الثالث أن يصنع ما صنعه السيف الثانى ولكنه سرعان ما تحول إلى أسد أخذ يجرى مسرعا نحو الجبال، باعثا الرعب فى قلب كل إنسان. ولم يستطع أحد أن يقترب منه إلا النبى .. فلما وصلت الأنباء إلى النبى بولادة على ذهب ليزور والدى الطفل. وما أن رأى عليا لأول مرة حتى أخذ شيئا من بصاقه من فوق شفتيه ومسح به شفتى الطفل. وسرعان ما ابتلع على هذا البصاق، وبذلك اكتسب المعرفة والقوة كما اكتسب القدرة على صنع الخوارق. ومنذ ذلك الوقت أصبح مظفرا دائما فى القتال، كما كان سيد المعارك وأعمال البطولة [١].. ولما تذكرت أم على الرؤيا التى كانت قد رأتها قبل أن تضع طفلها سمات عليا الحيدر (الأسد). وأعلن النبى صلى الله عليه وسلم منذ ذلك الوقت أن عليا سيكون أسد الله، ثم رفع النبى صلى الله عليه وسلم عمامته وجعل أحد طرفيها حول رأسه والطرف الآخر حول الطفل، وبذلك توج على بتاج البهاء[٢]». ثم كبر الطفل، وأخذ يشهد المعارك وهو صبى، «وكان النبى صلى الله عليه وسلم يستعين به إذا ما أوشكت الهزيمة أن تحل بجيش المسلمين، وعندئذ كان النبى صلى الله عليه وسلم يسلمه رايته وسيفه ذا الفقار، ويطلب منه أن يهجم على جيش العدو ويلحق به الهزيمة. ولم يفشل على مرة فى صنع ذلك[٣]».

ونكتفى بهذا القدر من قصة على، إذ أن فى هذا القدر ما يوضح

(١) John P. Brown: The Darviahes or Oriental Spiritualism, London. Oxford Univ. Prenn 1927, P. 389.

(٢) Ibid : P. 390.

(٣) Ibid : P. 401.

لنا أن البطولة تظهر هى بعينها فى قصص غزوة تبوك، فعمامة الرسول وسيفه ذو الفقار قد لعبا دورا مهما فى إحاطة على بهالة من البهاء والفخر. وكذلك كان على الحيدر مبرزا فى القتال، بل إن الجيش الإسلامى بأكمله كان يعجز عن القيام بما كان يقوم به على بمفرده.

وإلى جانب هذه الأسباب التى ترجح تأخر الزمن الذى ألفت فيه هذه القصص، تمدنا بعض المخطوطات بسبب آخر حسى يزيد فى ترجيح هذا الافتراض، إذ ترد فى ثنايا هذه القصص كلمة اسطنبول[1] بدلا من القسطنطينية.

وتشير دائرة المعارف الإسلامية إلى أن لفظ اسطنبول قد ظهر متأخرا، وأنه قد أصبح مألوفا فى االاستعمال اليومى منذ عصر ابن بطوطة، أى فى القرن الثامن الهجرى[2].

لقد ألفت قصص غزوة تبوك إذن فى عصور متأخرة. ولسنا نستطيع أن نقطع بأن أبا الحسن البكرى ـ إذا صح أنه قد عاش فى تلك العصور المتأخرة ـ هو المصدر الأول لهذه القصص، فمن المحتمل أن تكون هذه القصص مما كان يدور على ألسنة الشعب قبل أبى الحسن البكرى، وأنه كان يصوغها صياغة جديده ليستغلها فى وعظه.

وإذا كنا قد فرغنا من الكلام عن مشكلة زمن تأليف هذه القصص، ودرسنا الدوافع الباعثة على تأليفها، ورسمنا صورة

(١) (هـ) ص ٧٩ و، البيت ٢٧٧، (و) ص ٢٠٦ الرباعية ٥٢٣.

(٢) انظر دائرة المعارف الإسلامية، مادة: أسطنبول.

للفروسية الإسلامية ـ فى صراعها ضد الروم ـ كما تصورتها طائفة من الشعب متمثلة فى على بن أبى طالب ـ إذا كنا قد فرغنا من ذلك، فإننا نتمم دراستنا لهذه القصص بعرض الصورة التى رسمها القاص الشعبى للروم، أو بالأحرى لملكهم هرقل.

أما هرقل فهو فى نظر القاص فرعون عصره. ولذلك فقد استخف أيما استخفاف بما سمعه من أن النبى صلى الله عليه وسلم يطلب منه الدخول فى الإسلام، وسرعان ما رد على رسول النبى صلى الله عليه وسلم بقوله: «بمن يهددنا محمد؟ برعات الإبل أو بأوباش البادية؟ أما علم أننا ملوك الأرض طولا وعرضا، وقهرنا جميع الملوك والأكاسرة، وأننا لو أردنا أخذناه وقلعنا دابرته فى ديننا»[1] وقد وجد القاص المجال مرة أخرى لأن يخلع البهاء الفرعونى على هرقل حينما خرج للقتال يتقدم الصفوف. قال: «ثم سار (أى هرقل) مقدم العسكر وهو راكب على جواد أغر أجسم، له غرة كالدرهم، صلب الدعائم، مليح القوائم، مقبقب الحوافر، يجلى النواظر، واسع المناخر، بمركب من الذهب الأحمر، مرصع بالدر والجوهر، وعليه درع داودى ضيق الزرد، محكم العدد، وفى يده رمح وعلى رأسه ساث (كذا) افرنجى، متقلد بسيف جديد السباك، وعلى رأسه بيضة فرعونية[2]».

هذا البهاء وتلك الثروة التى أحاط بها القاص الشعبى ملك الروم استبدل بهما ـ حينما أراد أن يصور النبى صلى الله عليه وسلم وقد

(١) (ب) ص ٤٨ و، س ل ١١ إلى ١٣.
(٢) (ب) ص ٥٨ و، س ١٢ إلى ١٥، ص ٥٨ ظ س ١، ٢.

تقدم الجيوش ـ الوقار وجلال النبوة اللذين ورثهما النبى عن إبراهيم وإسماعيل. يقول القاص: «وركب النبى ناقته العظباء، ولبس حلة إبراهيم ورداء إسماعيل، وتدرع بدرعه الفاضل، وتعمم بعمامته السحاب، وتنكب بحجفته وشد وسطه بمنطقة جده عبد المطلب[1]».

ومثل فرعون، كان هرقل كافرا مستغرقا فى الكفر، فهو إن كان قد آمن بعيسى ابن مريم، لقد كان ما يزال يعبد اللات والعزى والهبل الأعلى ويقر بربوبيتها، وقد عبر هرقل عن ذلك فى كتابه إلى النبى (ص) قال: «فإنى لا أقر إلا بعيسى ابن مريم، ولا أعرف ربا غير اللات والعزا والهبل الأعلى[2]».

ولما كان هرقل ومن حوله عبدة أوثان، فقد كان رسول النبى صلى الله عليه وسلم حريصا على أن يوجه للأسقف ـ حينما دخل عليه ـ سلام الجاهلية لا الإسلام. فاغتاظ الأسقف وقال له: «يا أعرابى ما منعك من السلام؟ فقال: «حاطب»: يا أبكم هذا سلام عدو الدين[3]».

وبرغم غرور هرقل وكبريائه، كانت تنتابه أحيانا لحظات من الضعف والخور حينما كان يفكر فى الدين الإسلامى وفى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم. وحينئذ كان يحس أنه فى حاجة إلى من يعيد إليه ثقته بنفسه وبدينه. ولذلك استدعى القس الذى كان

(١) (ب) ص ٦٠ ظ، س ٨ إلى ١١.
(٢) (جـ) ص ٢٢ ظ، ص ٢٣.
(٣) (جـ) ص ٢١ ظ، س ١٢ إلى ١٥.

عالما بالأديان، حتى يؤكد له كذب دعوة النبى صلى الله عليه وسلم. فما أن فاجأه القس بأن التوراة قد بشرت بمحمد صلى الله عليه وسلم حتى انزعج الملك هرقل، وأبى الاعتراف، وقتل القس.

بهذا الخيال صنع القاص الشعبى صورة هرقل. ولم يمتد خياله إلى أبعد من ذلك فيرسم صورة للشعب الرومى، إذ أن موقعتى تبوك ومؤتة، اللتين حدثتا على الحدود الرومانية، لم تتيحا الفرصة لاتصال كبير بين جنود الإسلام وجنود الروم، وإنما حدث هذا الاختلاط بين الشعبين العربى والإسلامى والرومى والمسيحى فى أزمنة أبعد من ذلك، وحينئذ تفجر الأدب الشعبى عن تلك الصورة المفصلة لشعبين امتد صراعهما الدينى أجيالا وأجيالا.

وبعد أن ناقشنا المشكلات التى يمكن أن تثار حول الأدب الشعبى الذى قيل فى غزوة تبوك، نكون قد انتهينا من عرض أول نتاج شعبى وصل إلينا، يتصل بالغزوات الأولى ضد الروم. لقد كانت فكرة البطولة تشغل الشعب كما تشغله دائما فى كل مكان وزمان فأراد أن يصورها. متمثلة فى البطل النموذجى على بن أبى طالب.